مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد: 07. عدد: 02 السنة :2008

أصداء عن تلمسان الزيانية من خلال رحلة الفقيه أبي بكر بن خطاب المرسي(7هـ/13م)

أ. نصيرة عزرودي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

الملخص:

تعدّ الرحلة دائما وأبدا وسيلة للتعرف على عادات وتقاليد وأخلاق الشعوب، وكذلك على تراثها وأنماط علومها ومعارفها قديمة كانت أو حديثة، كما تتحقق بواسطتها أهدافا علمية ومعرفية، لا يمكن التوصل إليهما عن طريق الكتب والوثائق فقط، ولذلك تجد في كل زمان ومكان رجالا أشداء يتركون الأهل والوطن وحياة الدعة والاستقرار من أجل تحقيق هدف علمي أو رغبة ذاتية بواسطة الرحلة فردية كانت أو جماعية، غير مبالين بالمشاق والأهوال التي يعانونها في رحلاتهم، والأهداف التي يحقّقونها في رحلاتهم سواء كانت دينية أو علمية أو اجتماعية تنعكس آثارها على تقدم الشعوب، وازدهار المعرفة في مختلف ميادين العلم.

ولبيان ذلك وقع اختيارنا على إحدى النماذج الفذة، ألا وهو الفقيه الأندلسي أبو بكر بن خطاب المرسي، الذي ترك موطنه بمرسية تحت ضغط النصارى، وتكالب الصدمات الداخلية والخارجية على ربوع الأندلس أثناء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ليلتحق بركب إخوانه في تلمسان الزيانية التي احتضنتهم وبوّأت لهم مراكز مرموقة، واستعان بهم ملوكها في تسيير دواليب الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، وقيادة الجيوش، خاصة الذين كانت لهم خبرة في مجال الإدارة والكتابة والسياسية والتدريس.

حصد بن خطاب على مقام رفيع، وشهرة ذائعة الصيت، ما جعله بحق حامل لواء مشعل فن الترسل والأدب في عصره، بل زاد على ذلك تولي وظيفة صاحب القلم الأعلى بالحاضرة تلمسان، فهل كان التحاقه بها عن سابق تخطيط، أم كانت العناية الإلهية هي التي وضعته في هذه الوجهة؟، وهل كانت رحلاته لغرض علمي أم لا؟، وما الجديد الذي قدّمه لدى حكامها في السياسة والفكر.؟

من خلال هذا العمل سنحاول الإجابة عن هذه الإشكاليات وغيرها، لنقيم وضع الحاضرة الزيانية في عيون الآخر الأندلسي، بالاعتماد على رحلته المبثوثة في رسائله الإخوانية، والتي جمعت في كتاب

" **فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر ابن خطاب**"، مستعينين أيضا بعدد من المصادر التاريخية وكتب التراجم والرحلات.

توطئة تاريخية:

بعد أن توالت المصائب على أهل الأندلس نتيجة سقوط العديد من الحواضر الهامة،كسقوط سرقسطة سنة 512 هـ - 1118 م، وبلنسية سنة 635 هـ - 1238 م، وقرطبة سنة 636هـ - 1239 م، ومرسية سنة 640 هـ - 1242 م، وشاطبة سنة 644 هـ - 1246 م، وإشبيلية سنة 646 هـ - 1248 م[1]، تحتّم الأمر على أهالي الأندلس شدّ الرحال نحو المناطق التي كانت لا تزال تحت السلطة الإسلامية[2]، أو الهجرة إلى حواضر الشمال الإفريقي[3] فاستقروا فيه، وفي هذا الصدد يذكر لنا " ابن الآبار " أنه وصل إلى البلاد الحفصية بعض الشاطبيين، بعد أن أجلاهم ملك أرجونة عنها، مع أهل جهاتها، وهم ألوف من المسلمين، فتفرقوا في البلاط، وذلك في رمضان سنة 645 هـ - 1247 م.[4]

---

[1] – للمزيد حول سقوط الحواضر الأندلسية ، انظر ابن الدلائي، **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في ذكر البلدان والمسالك إلى جميع الممالك**، تح عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص 20 – المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، مج4، د ط، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت ،1988، ص 447 – 490 .

[2] – يرجع سبب هذا النزوح الأندلسي نحو المدن الأندلسية المجاورة إلى اطمئنانهم إلى سيادة الإسلام في إسبانيا ، وأملا في العودة إلى مدنهم التي اضطروا قسرا إلى الهجرة عنها، وفي كثير من الأحيان كان هؤلاء المهاجرين يشاركون فرسان المدن الأندلسية الأخرى في الجهاد ضد الإسبان إلى جانب المرابطين أو خلفائهم من بعدهم الموحدين، كل هذه الأسباب جعلت الدكتورة " **سحر السيد عبد العزيز سالم** " تنفي أن تكون هناك هجرات أندلسية كبيرة وجماعية إلى أقطار البحر المتوسط، على الرغم من سقوط بعض الحواضر الأندلسية في يد ملوك المسيحية في إسبانيا في عصري الطوائف والمرابطين، وحسب رأيها دائماً فإنه حتى نهاية عصر المرابطين بل وحتى نهاية الشطر الأول من العصر الموحدي في سنة 609 هـ - 1212 م،كانت الكفة الإسلامية لا تزال هي الكفة الأرجح، فيما يتعلق بميزان القوى في الصراع الإسباني في شبة الجزيرة الأيبيرية. انظر، سحر السيد عبد العزيز سالم، **الهجرات الأندلسية والموريسكية الكبرى**، ضمن كتاب أوراق بحر متوسطة من العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2006،ص 251 – 252 .

[3] – تذكر د. سحر السيد عبد العزيز سالم، أن الهجرات الأندلسية إلى الشمال الإفريقي كانت أغلبها تتجه إلى المغرب الأقصى، وخاصة مدينة رباط الفتح، التي قصدها لوحدها مهاجري بلنسية في حدود عشرين ألف نسمة، وإذا قيست هذه النسبة على بقية مدن الشرق الأندلسي المهاجرين إلى رباط الفتح، فستقدر بنحو مائة ألف من (المهاجرين)، وتزايد عددهم، خاصة أهالي شاطبة وجزيرة شقر الذين بدءوا في الهجرة من مدنهم قبل سقوطها بعدة أعوام، وبعد سقوطها على يد ملك أراغون سنة 645 – 1247 م تزايد توافدهم للمغرب الأقصى، خاصة بعد الظهير الذي أصدره الرشيد الموحدي " 630 هـ - 640 هـ / 1232 – 1242 " وذلك سنة 637 هـ - 1240 م، قصد بعض المهاجرين الأندلسيين مدينة تونس ويجابه، لكن المصادر لم ترصد أعدادهم بصورة محددة، الأمر نفسه ينطبق على الإسكندرية خاصة، ومصر عموماً، حيث كانت غالبية الهجرات الأندلسية إليها بشكل فردي أو على هيئة هجرة أسرات متفرقة على أقصى تقدير كأسرة ابن حديد الأندلسية، وأبو بكر محمد الطرطوشي، والفقيه الزاهد أبو عبد الله بن محمد بن سلمان المعافري الشاطبي. للمزيد انظر، سحر السيد، **الهجرات الأندلسية والموريكسية**، ص 253 – 262 + **مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي منذ إنشائها حتى نهاية عصر بني مرين**، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1996 . ص 70 – 71 + **شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي**، د ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1995 ، ص 225 .

[4] - ابن الآبار، **الحلة السيراء**، تح حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، 2/ .303

ومع مرور الوقت تأكد لمسلمي الأندلس استحالة الاستقرار فيها، بعدما عاينوا بأنفسهم سقوط أهم حواضره في يد النصارى، من ذلك سقوط طليطلة على يد ألفونسو السادس Alfonsso VI ، وذلك سنة 478 هـ - 1087 م، مما آثار مخاوف الناس، فكان تفكيرهم الوحيد هو الهجرة، وازدادت خيبة أهل الأندلس، وفقدوا الأمل في تحرير أوطانهم من يد النصارى الغاصبين بعد الهزيمة الشنيعة في " حصن العقاب Las Navas de tolosa "، وذلك سنة 609 هـ - 1212 م ونستشف ذلك من قول الشاعر " إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي :

وقائلة أراك تطيل فكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب غدا سببا لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب[5]

والملاحظ على هذه الأبيات أنّها ترشح بالعقلية الانهزامية، والتي أودت بالكثير من سكان الأندلس إلى الانغماس في الملذات، وترك فريضة الجهاد، و إلى مفارقة أوطانهم، والبحث عن ملجأ آمن، وكان المفروض على هؤلاء الشعراء أن يدعوا أهل الأندلس إلى التكتل أمام الخطر، وإلى تغيير ما بنفوسهم من أسباب الانقسام والانهزام حتى يغيروا الوضع المأساوي.[6]

وبهذه النفسية المنهزمة شدّ أغلبهم عصا الترحال إلى مدن المغرب الإسلامي في أعداد غزيرة، لا يمكن إحصائها البتة، وفي هذا يقول المقري: « اعلم جعلني الله تعالى وإياك، ممن له للمذاهب الحق انتحال أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة، إلا علام الغيوب، الشديد المحال».[7]

وبهذا توجهت أنظار الأندلسيون إلى حواضر المغرب الأوسط، خاصة إلى تلمسان الزيانية، وفي هذا يقول المقري: « لكن لما رأوا استحالة العدو عليها، وأنه آخذها لا محالة، فوضوا رحالهم عنها، فنزلوا بتلمسان المحروسة».[8]

وهذا الأمر نفسه أشار إليه المجاري بقوله:« كان علماء الأندلس لشعورهم بسوء العاقبة، يعملون في الهجرة إلى ما بجوارهم من بلدان، وكان مقصدهم من ذلك تلمسان والمغرب الأقصى، ثم إلى تونس».[9]

---

[5] – المقري، **نفح الطيب**، 4/ 464 .

[6] – محمد الطالبي، **الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين**، مجلة الأصالة، العدد 26، السنة الرابعة،1975، ص 49 - 51 .

[7] – المقري، **نفح الطيب**، 2 / 5 .

[8] - المقري، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، تح مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1939، 1/ 71 .

[9]– أبو عبد الله محمد الأندلسي المجاري، **برنامج المجاري**، تح محمد أبو الأجفان ، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 30.

ويعود هذا التوجه بالذات إلى تلمسان كونها مستقراً لآل زيان اتخذوها دارا لملكهم، وأجروا لها المياه فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية .[10]

ولمّا كانت بهذه الأوصاف، وفد إليها العديد من الأندلسيين، وفي ذلك يقول"ابن الأعرج": «فقصد (الأندلسيين) منهم تلمسان، وقد استقر أعيانهم و أهل بيوتاتهم بها.»[11]

ازداد تقاطرهم عليها خاصة في إمارة "يغمراسن بن زيان " . الذي اشتهر باعتنائه بالعلم وأهله – العديد من الأندلسيين، فاستعان بهم في تسيير دواليب الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، وقيادة الجيوش وخاصة الذين كانت لهم خبرة في مجال الإدارة والكتابة والسياسية والتدريس، من ذلك عالمنا الفقيه أبو بكر بن خطاب المرسي الذي قادته المشيئة الإلهية إلى حاضرة بني زيان، فتبوأ فيها مقاما رفيعا، وحصد الشهرة وذيوع الصيت، ما جعله بحق حامل لواء مشعل فن الترسل والأدب في عصره، بل زاد على ذلك تولي وظيفة صاحب القلم الأعلى بالحاضرة تلمسان، فهل كان التحاقه بها عن سابق تخطيط أم كانت العناية الإلهية هي التي وضعته في هذه الوجهة؟، وهل كانت رحلاته لغرض علمي أم لا؟، وما الجديد الذي قدّمه لدى حكامها في السياسة والفكر.؟

لمحة عن حياته ونشأته:

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي، ولد بمرسية سنة 613هـ[12]، كان كاتبا شاعرا مجيدا له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك، مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقل وحسن سمت [13]، مجودا للقرآن، ضابطا محدثا، نقّادا عالي الرواية .[14]

---

[10] – ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مراجعة سهيل زكار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت،1981 ، 7/ 105 .

[11] – أبو عبد الله محمد بن الأعرج السليماني، **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 170، ورقة رقم 96 .

[12] - أبو بكر بن خطاب المرسي، **فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر بن خطاب**، تح فتيحة أمين، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رسالة دكتوراه، الرباط، 2004 . 2005م، ص 2 . ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام** ، ط2 ، تح ليفي بروفنسال، دار المكشوف، لبنان، 1956، 2/ .433

[13] - ابن الملك، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر السادس، القسم الأول، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص 232 – ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج 2، ص 426 . يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تح عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المكتبة الوطنية، 1980، 1/ 129.

[14] – يحي بن خلدون، **بغية الرواد**، 1 / 129.

جمع بين صناعتي الكتابة والشعر، وقد وصفه ابن الزبير بقوله:« كان كاتبا بارعا، وشاعرا مجيدا، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام»[15]، ويتفق معه ابن خلدون الذي يقول في حقه«وكان مرسلا بليغا، وكاتبا مجيدا، وشاعرا محسنا.»[16]

شهد له الكثيرين بتميز شعره، فهذا العبدري يقول بعد أن أورد له أبياتا:«نظام هذه الأبيات يدل على باع في الأدب مديد، وطبع فاضل ومقول مجيد.»[17]

كل هذه الأوصاف مكّنت له شهرة وذيوعا شهد له بها معاصروه، فجامع رسائله قال عنه :« وإن من أرفع أهل عصره في ذلك(أي صناعة الإنشاء) شأنا، وأعلاهم فيه رتبة ومكانا، شيخ المعارف والدراية، وبقية أهل الإسناد في وقته والرواية، الفقيه الأجل، الكاتب الأبرع، المحدث المتقن، المقرئ المتفنن، أبو بكر ابن محمد ابن عبد الله ابن دواد ابن خطاب الغافقي المرسي الأندلسي...له من اتساع الباع وارتفاع القدم، والتقدم الذي لم يزل موصوفا به على القدم، ما أربى به على أهل عصره، وبارى فيه من تقدم».[18]

وأمّا ما وصفه به ابن الجيّاب بقوله «كان شكش الأخلاق متقاطبا زاهيا بنفسه» [19]، ففيه مبالغة وتهويل، خاصة إذا عرفنا أن مثل هذه الصفات تتنافى مع ما وصفه به ابن الزبير وهو المعاصر له، فابن خطاب كان عزيز النفس ذا أنفة وإباء، وهذه طبيعة عامة في المرسيين كما هو معلوم.[20]

وما يؤكد لنا ذلك تنافس الملوك والأمراء في استقدامه وخطب وده، كاستدعاء السلطان الحفصي **المستنصر** له على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب، فاعتذر ورد عليه المال، ممّا أظهر علو شأنه وبعد همّته .[21]

كان محط أنظار الأمراء والسلاطين يطلبون استدعاءه واستقدامه، تولى الكتابة عن أمراء مرسية[22]، ثم ورد على غرناطة واستعمل في الكتابة السلطانية مدة[23]، وأخيرا استكتبه أمير تلمسان أبو يحي يغمراسن ابن زيان بعد

---

[15] . ابن الخطيب، **الاحاطة**، 2/ 426.

[16] . ابن خلدون، **العبر**، 7/ 163.

[17] - العبدري، **الرحلة المغربية**، تح أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، دت، ص18.

[18] . أبو بكر بن خطاب، **فصل الخطاب**، قسم التحقيق، ص 2.

[19] – ابن الخطيب، **الإحاطة**، ص 426. 427 .

[20] - أبو بكر بن خطاب، **فصل الخطاب**، قسم الدراسة، ص 63.ولمعرفة مقدار ما تميزت به منطقة شرق الأندلس ورجالها من موسوعية علمية ومشاركة فكرية متعددة، انظر، **المصدر نفسه**، قسم الدراسة، ص17. 18.

[21] – ابن الخطيب، **الإحاطة**، 2/ 427.

[22] . أحمد عزاوي، **الغرب الإسلامي من خلال رسائله في القرنين 7. 8**، الرباط نيت المغرب، 2006، 2/ 16.

[23] . ابن الخطيب، الاحاطة، 2/ 426 . يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، 1/ 129.

جوازه إليها، وجعله صاحب القلم الأعلى[24]، فصدر منه الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ.[25]

توفي بتلمسان سنة 686هـ - 1287م[26]، قال عنه ابن رشيد" وبوفاته انقرض علم الكتابة".[27]

خلّف لنا تراثا ترسيليا شاهدا على علو كعبه، سجل فيه تنقلاته ورحلاته، عنونه جامعه بـ فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر ابن خطاب المرسي[28]، وديوان شعري سماه المستطاب.[29]

الوضع الداخلي للأندلس وأثره على شخصية الفقيه:

اتّسمت حياة أبو بكر محمد بن خطاب الغافقي بالمزاوجة ما بين المهام الإدارية الرسمية والتدريس العلمي، إلى جانب تنقلات كثيرة ما بين مرسية وإشبيلية وغرناطة وأخيرا تلمسان الزيانية، دوّنها في رسائل إخوانية مكّنتنا من إعطاء نظرة فاحصة حول أوضاع الحاضرة الزيانية أثناء القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي.

لعل الحديث عن رحلاته يقودنا إلى التعرف عن أسباب هذا التنقل المستمر له من ربوع الأندلس المشتت ابتداء من مرسية فاشبيلية فغرناطة فحصن منتيشة ليصل في خاتمة المطاف نحو تلمسان الزيانية، فمن المرجح أن تكون الظروف السياسية المشتتة ومحاولات طمس الهوية الأندلسية بمقوماتها الإسلامية والثقافية والحضارية في المدن المغتصبة من قبل الممالك المسيحية، جعلت من فقيهنا يتّخذ من الارتحال وسيلة للانفكاك والانطلاق إلى آفاق رحبة، يجد فيها حريته وذاته، ويحقق طموحه وتطلعه نحو مقام كريم، ومكانة رفيعة، تكرم له بضاعته الكتابية الغالية، فتدنيه وتحظيه.[30]

ويبرر لنا ابن خطاب سبب رحيله عن مرسية في قوله: « وإن كانت مرسية مسقط رأسي ومطلع شمسي، فكل ما يروي الصدى صيب، وكل مكان ينبت العز طيب»[31].

---

[24] – التنسي، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تح محمود بوعياد، (طبع باسم تاريخ بني زيان ملوك تلمسان)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 127.

[25] . ابن خلدون، 7/.163

[26] – فصل الخطاب، ص 3 . ابن الخطيب، الإحاطة، 431/2 . الصفدي، **كتاب الوافي بالوفيات**، ط 2 ، تح أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، 4/ 25.

[27] . التنسي، **نظم الدر**، ص 128.

[28] ـ قامت بتحقيقه الباحثة المغربية فتيحة أمين في جزأين، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال، الرباط، سنة 2004 . 2005.

[29] . هذا الكتاب مفقود، لكن الباحثة " فتيحة أمين" قامت بجمع شعره المتناثر الوارد في فصل الخطاب وغيره من المصادر، وجعلته في ملحق .

[30] . خالد عمر محمد باوزير، **فن الترسل الإخواني بالأندلس في القرن السابع الهجري**، دكتوراه، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، 2004. 2005، ص 220.

[31] . فصل الخطاب، ص 96 . باوزير، المرجع نفسه، ص 225.

لقد عكست لنا رحلاته الواقع الأندلسي المرير، إذ هزَت رحلته إلى إشبيلية ـ التي قصدها سنة 649هـ ـ كيانه لما آلت إليها على يد ملوك قشتالة، فكان شاهدا على حالها ومآلها بعد سقوطها بثلاث سنوات، فقد طاف داخلها وخارجها ووقف على آثارها ومغانيها ومعالمها البارزة، متأملا فيها والدهشة تأخذه وتأسره، والحسرة تعتصره من هول ما رأى، ولسان حاله ومقاله يقول: ما هذه إشبيلية التي أعرف؟، فشتان بين إشبيلية المسلمة بالأمس قاعدة الأندلس وحاضرتها وعروسها، وما حبيت به من طبيعة فتانة ومتنزهات، وبين ما آلت إليه تحت راية حملة الصلبان الحاقدين من دمار وخراب وخسف ومسخ وطمس لمعالم المدينة وآثارها الإسلامية والحضارية.[32]

أما رحلته إلى غرناطة سنة 662 هـ ـ آخر معاقل الإسلام الصامدة، وملاذ الكثيرين ممن شدّوا الرحال مهاجرين وفارين إليها من أبناء الأندلس، بعد ما آل إليه حال بلدانهم بعد السقوط الفاجع لمدنهم، فكانت قبلة المضطهدين ـ فقد اكتنفتها الأهوال والصعاب مرورا بواد آش[33]، وهو ما جاء على لسانه: « وقد آن أن أعرّفكمْ بما حضرَ منْ خبرِ المسيرِ، وإنْ كنتُ أخطُو في مضمارِ القولِ بالباعِ القصيرِ: انفصلْنَا من مُرسيةَ فاستقبلنا أهوالاً، وعبرنا المنايا وهاداً وجبالاً، مرابضُ آسادٍ، ومراحلُ يصْحبكَ رَوْعُها في كلَّ تأويبٍ وإسئادٍ، كابدْنا فيها الخوفَ والخَيفَ، وقطعناهَا ولا تسألْ كيفَ، حتى انتهينَا إلى واد آشٍ، وما أدراكَ ما وادِ آشٍ؟ أمُّ القرَى، وأمُّ كلَّ طالبٍ للقرَى، وصلناهَا منتصفَ النَّهارِ، والمطِيُّ تشكُو وجاهَا، وظلال الدوح تحرم من رجاها، والهجيرُ تشوِي الوجوه ناره، والنقع قد أشاب الرُّؤوسَ مثارُهُ، فوقفنا بخارجهَا نطلبُ موضِعا نستظلُّ ببنائِهِ، ونَحَطُّ رحالنا بفنائهِ، ونُغلظُ اليمينَ ألاّ نمدَّ أعيننَا فضلاً عن أيدينا إلى اجتبائِهِ، والأبوابُ في وُجُوهِنا تُغلقُ، والألسنةُ بذمَّنا وسبَّنا تُطلق، والأشجارُ كلُّها بدفعِ الجفاءِ، بلْ بصفْعِ الأقفاء تَحْلقُ، وكانَ القائدُ أبُو محمدِ بنُ المعارِكِ، هو الذي سلك بنا تلكَ المسالكَ، وتقدَّمَ لإنزالِنا هنالكَ».[34]

---

[32] ـ للاطلاع على وصفه راجع فصل الخطاب، ص . محمد باوزير، المرجع نفسه، ص 220 ـ 227 . العلوي البلغيثي، **رحلات ابن خطاب المرسي**، مجلة دعوة الحق، العدد 7، 1416هـ/1995، ص 79.

[33] ـــ **واد أش**، مدينة بالأندلس من كورة ألبيرة، قريبة من غرناطة، كبيرة وخطيرة، تنحدر إليها أنهار من جبال الثلج، كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون، والقطن بها كثير، وتشتهر بالحرير أيضا، ويغلب على شجرها البلوط. انظر، الحموي، **معجم البلدان**، د ط، تح فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، 198/1 . الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح لبفي بروفنسال، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1988 م، ص604.

[34] ـ فصل الخطاب، ص 100 ـ 103.

بعد هذا المعترك الصعب وصل إلى غرناطة ومن معه من الأعيان الأندلسيين، وفي هذا يقول ابن خطاب: « أصبحوا على مشارف غرناطة المسلمة، حيث بدأ نسيم الإسلام يخلص إليهم عليلا، وشعار التوحيد يتناهى إلى أسماعهم من أعالي الصوامع.»[35]

ثم نعود لنستشعر الألم واللوعة في نفس ابن خطاب خاصة بعد خروجه من مرسية بعدما كشّر العدو عن أنيابه ولم يرضه الصلح الذي أبرمه في المعايشة السلمية، ثم ما كان من توجه الفقيه بصحبة الوزير ابن وضاح على حصن منتيشة، الذي تعرض لحصار العدو، وحالة الهرج والمرج، والفتنة العظيمة التي تعرض لها أهل هذا الحصن، ثم انصرافه منها بعد استيلاء العدو عليها، واستقراره بحاضرة تلمسان.[36]

رحلته إلى الحاضرة الزيانية وانطباعاته عنها:

مثّلت تلمسان المحطة الأخيرة في حياة ابن خطاب، ولم يكن التحاقه بها عن سابق تخطيط بقدر ما كانت المشيئة الإلهية هي التي وضعته في هذه الوجهة، فموطنه مرسية كان يعاني التشتت والفتن، وفي هذا يشير ابن الخطيب « إنه رجع إلى مرسية وقد ساءت أحوالها، فأقام بها مدة ثم انفصل عنها واستقر بالعدوة بعد مكابدة».[37]

لم يكن وحيدا في رحلته بل وفد معه جماعة من أعيان الأندلس، وعلى رأسهم الأمير" ابن وضّاح " وهو من جالية شرق الأندلس، فآثره يغمراسن وقربّه وأكرم نزله، وأحلّه من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له.[38]

كان وصولهم إليها ليلة عيد الفطر سنة 676هـ، و عمره آنذاك 63 سنة، يقول ابن خطاب: «وصلناها ليلةَ عيد الفطرِ، بعدما أقمنا في هُنينَ أيّاماَ، وحمدنا الله تعالى الذي منَّ بالسَّلامةِ، وأحلَّنا منْ هذه العُدوةِ دارَ الإقامةِ»[39]

تألق نجم ابن خطاب وذاع صيته في تلمسان، يقول جامع رسائله: « ولمْ يزلْ ينتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، ويتردَّدُ في دُولِ ذلكَ الأوانِ، إلى أنِ استقرَّ آخرَ عمرهِ بتلمسانَ، فلاحَ لهُ من وجهِ النَّجاحِ تبلُّجُ سَناَ وإسْفارٌ، فألقَى عصا التَسيارِ، ونبذَ الأسفارِ، وأقبل على مطالعةِ الأسفارِ، وقُضِيَ له المُقامُ هنالكَ والاستقرارُ، فتدفَّقتْ بها ينابيعُ بلاغتِهِ وبراعتِهِ، ونفقتْ عندَ أرْبابها في الرَّسائلِ سوقُ صناعتهِ.»[40]

---

[35] . المصدر نفسه، ص 105.

[36] . للمزيد حول متاعب رحلته من مرسية إلى تلمسان، انظر، فصل الخطاب، ص 191 . 198.

[37] . ابن الخطيب، **الاحاطة**، 2/ 275.

[38] – ابن خلدون، ج7 / 105 – .106

[39] . ابن خطاب، **فصل الخطاب**، ص 198.

[40] . المصدر نفسه، ص3.

ويبدو أن ابن خطاب قد أُخذ بتلمسان في أول أمره لما لقي من حظوة وحفاوة، وقد امتدحها وأهلها في سياق مدحه في قصيدة أجاب بها هذا الأخير، منها قوله: [41]

خَبَّر تلمساناً بأنني جئتُهَا لمّا دعاني نحوهَا الرُّوادُ

وعَلقْتُهَا سمعا ولم أر حُسنهَا إلاّ أناسًا حدَّثوا فأجادُ

ولربَّ حُسنٍ لا تراه ناظرُ ويراه . لا يخفىَ . عليهِ فُؤادُ

ودخلتُها فدخلْتُ مِنها جنَّة سُكَّانها لا تخفى ولا حِيادُ

ورأيتُ فضلاً باهِرا ومكارِمَا وعُلاَ تقاصرَ دُونها التَّعدادُ

أهلُ الرِّوايَةِ والدِّرايةِ والنَّدَى في نُورِهِمْ أبدًا لنا اسْتمدادُ

فهمُ إذا سُئلوا بحارُ معارفِ ولدَى السَّكينةِ والنُّهى أطْوادُ

درجاتُهَا ينْحطُّ عنْها غيرُهُمْ ومنَ الورَى قَترُ ومنْهُ وهادُ

فأُجِلُّهُم وأُحِلُّهم منْ مُهجتِي بمكانةِ مَا فوْقهَا مُزْدادُ

وما يؤكد لنا تعلقه الشديد بتلمسان حرصه على استقبال أبناء وطنه من شرق الأندلس، فنراه يسعى لكتابة ظهير في حق الجالية الأندلسية التي نزحت فرارا من جحيم الفتن بالأندلس، ليجد لها وطنا ثانيا في حضرة تلمسان تحت رعاية السلطان يغمراسن بن زيان الذي « أحلَّهمْ بهِ من رعيهِ الجميلِ كِنافَا، وبوَّأهمْ منْ اهتمامهِ الكريمِ، وإنعامهِ العميمِ جنات ألفافَا، ووطَأ لهمْ جنابَ احترامهِ تأنيسَا لقلوبهمْ المنحاشةِ إلى جانبهِ

[41] - ابن خطاب، **فصل الخطاب**، ص 73 . ابن الخطيب، **الإحاطة**، 430/2.

العليّ واستيلافَا، وأشاد بما فيهمْ من المقاصدِ الكرامِ، وأضفىَ عليهم من جُنَنِ حِمايتهِ ما يدفعُ عنهم طوارقَ الاضطهادِ والاِهتضامِ.»[42]

بعد وفاة السلطان يحي يغمراسن بن زيان سنة 681هـ، تولى الكتابة عن ابنه أبي سعيد، وعمره يناهز آنذاك 68 سنة، ولم يكن ابن خطاب كاتبه الوحيد، إذ كتب له صاحبه ابن خميس، حتى إن ابن خلدون في البغية[43] ذكر ابن خميس كاتبا لأبي سعيد دون الإشارة إلى أبي بكر بن خطاب، مع العلم أنه أصدر عددا مهما من المكاتبات باسمه إلى الدولة الحفصية، ولعل مرد ذلك إلى أن ابن خطاب في هذه الآونة قد كثرت عليه شكايات ملازمة وأحوال غير ملائمة.[44]

وسرعان ما رغب ابن خطاب عن تلمسان، ولم يطب له فيها المقام، يقول جامع رسائله:«ثم رامَ التَّخلي عنها، وكاتب الشرقَ والغربَ في الإعانةِ له على التخلص منها، فتعذَّر ذلك، وانبهَمتْ دون أمله منه السُّبلُ والمسالِكُ، حسبما يُستقرأُ ذلك من ترسيلِهِ، ويُوقفُ منه على دليلِهِ»[44]
فكتب رسائل إلى حضرة تونس وإلى سبتة وفاس راغبا في الانتقال إليهم، ذكر ذلك في غير ما رسالة، كرسائل تعازيه في أبي القاسم العزفي لبنيه، ورسائله على القاضي أبي أمية الدلائي بفاس، ورسائله إلى الحفصيين وبعض الرؤساء بتونس.[45]

---

[42] ـ المصدر نفسه، ص 73. ونص الظهير كالآتي: «هذا ظهيرُ عنايةٍ مديدةَ الظَّلالِ، وكرامَةِ رحيبةَ المجالِ، وحِمايةٍ لا يُخشىَ على عِقدهَا الُمبرمِ، وعهدها المُحكمِ من الانحلالِ والاختيالِ، أمر به فلانٌ ـ أيَّدهُ الله أمرهُ، وأيَّدَ عصرهُ ـ لجميعِ أهلِ الأندلسِ المستوطنينَ بحضرةِ تلمسانَ ـ حرسهَا اللهُ ـ أحلَّهمْ بهِ من رعيهِ الجميلِ كِنافَا، وبوَّأهمْ منْ اهتمامهِ الكريمِ، وإنعامهِ العميمِ جنات ألفافاَ، ووطَأ لهمْ جنابَ احترامهِ تأنيسَا لقلوبهمْ المنحاشةِ إلى جانبهِ العليّ واستيلافَا، وأشاد بما فيهمْ من المقاصدِ الكرامِ، وأضفىَ عليهم من جُنَنِ حِمايتهِ ما يدفعُ عنهم طوارقَ الاضطهادِ والاِهتضامِ حين اختبرَ خدمَتَهُم، فشكرَ ما تولَّوا فيهَا من الجد والاجتهادِ، واطَّلعَ على أغراضهمْ السَّديدةِ في اختيار حضْرتهِ السعيدةِ للسُّكنَى على سائر البلادِ، فلحظَ لهمْ النيَّةِ واعتبرَها، وأظهر لهم هذه النية واعتبرهَا، وأظهر عليهم مزايَا ما لهمْ من هذه المناحِي الحميدةِ، وأثرَهَا، وأذنَ أيَّدهُ الله لهمْ ولمن شاءَ من أهلِ تلمسانَ البلديِّينَ في كذاَ.»

[43] . يحي بن خلدون، **بغية الرواد**، 208/1.

[44] ـ أبو بكر بن خطاب، **فصل الخطاب**، قسم الدراسة، ص 53 . 54. وفي هذا الصدد يمكننا الاعتماد على ما ذهبت إليه الدكتورة سحر سالم في فهم علاقة الصدام ما بين الأندلسي والمغربي إلى القول بأن عقلية أهل الأندلس المهاجرين إلى المغرب دائما ما تكون جانحة إلى الاستقلال والثورة، ففي أولى مراحل استقراره بالمغرب عموما، يبدأ بدراسة البيئة التي يعيش فيها، وبالتالي دراسة الطرق والوسائل التي تمكنه من البروز على الساحة الاجتماعية، وعندما ينتهي من هذه الدراسة يبدأ في العمل انطلاقا من محيطه الذي يعيش فيه، ولكنه يجد مواجهة عنيفة تضطره إلى البحث عن طريقة تمكنه من الوصول إلى السلطات العليا، وعادة ما كان أبناء الجالية الأندلسية يصلون بفضل ملكاتهم العلمية والأدبية، ولكن الأندلسي سرعان ما يجد أن الرغبة تعتريه من جديد للاستحواذ على ما هو أكثر من ذلك، وتحركه رغبته في البحث عن ذاتيته وطبيعته المائلة دائما نحو الاستقلال، ومن هنا يبدأ الصدام مع الآخر، وتكثر الوشايات وتبدأ معها النكبات. للمزيد انظر سحر السيد عبد العزيز سالم، **الهجرات الأندلسية والموريسكية**، 2006، ص257 – 258

[44] . فصل الخطاب، ص 3.

[45] . المصدر نفسه، قسم الدراسة، ص209 . 212.

وأكثر ما تطلع إليه ابن خطاب هو الحلول بحضرة تونس، من ذلك رسالته إلى الحكيم أبي الرضى، والرسالة مؤرخة في الثامن عشر من عام سبعة وسبعين وستمائة، وذلك بعد حلوله بنحو عام: « وذكرتمْ في درْجِ كتابكُمْ، أنَّكمْ كنتمْ مُنتظرينَ وُصولِي صحبة الفقيهينِ الجليليْنِ الفاضليْنِ المُعظَّمينِ: القاضي أبِي العبّاس بْنِ الغمَّازِ، وأبِي القاسمِ بْنِ زيتونَ، وصلَ اللهُ علاءهُمَا، وما كان القصْدُ الأولُ إلا تلك الحضرةَ العُليا أيَّدها اللهُ، حيثُ العزُّ ظلُّهُ مَمدودٌ، والملكُ أَزرُهُ مشدودٌ، وللآمالِ وفودٌ تتبعُها وفودٌ، كلٌّ يحدَّقُ بهِ من رعْيها الأكفالِ إطارٌ، ويتقلَّبُ منْ إنعامِها في عافيةٍ، غُرابُها لا مُنبرٌ ولا مُطارٌ، فطُوبَى لمن ودعَ مَحلَّهُ، وألقَى بذلكَ الفَيْءِ الخِصبِ رحلهُ، فحازَ الذُّخْرَ المكنوزَ، ويا ليتَنِي كنتُ معهمْ فأفُوزَ. »[46]

وفي رسالة أخرى إلى الأمير أبي زكريا الحفصي يذكره فيها بوعد أبيه السلطان أبي إسحاق بقبول الخدمة في الحضرة، ويطلب وساطته عنده له، والرسالة مؤرخة في التاسع من جمادى الآخرة عام 679هـ، قال:« وإنَّ العبْدَ خاطبَ حضْرةَ المؤلى الأميرِ الأعْلىَ أبي إسحاقَ أيَّدهَا اللهُ، صُحبةَ هذا الكتابِ، مُذَكَّراَ لهَا بخدمةٍ سابقةٍ أعدَّهَا ذُخْرا ليومِهِ و غدهِ، وفخراَ يبقى بعْدَه لولدهِ، ومُعرَّضاَ بوعدها الكريمِ السَّابقِ للعبْدِ، ووعْدُها صادِقٌ، وخيرُها لاحِقٌ، إنْ شاء اللهُ، ومَحلُّكُمُ الكَريمُ هُوَ الوُصْلةُ بينهاَ وبينَ ذوي الحاجَاتِ، والوسيلةُ إلى قضاءِ الأوطارِ لديْهاَ وارْتقاءِ الدَّرجاتِ، وقطب مَملكتِها العُظمىَ، وقلبُها المملوءُ رأفةَ ورُحماَ، فإن أنعمتُمْ بتذْكيرهاَ بوعدهاَ الكريمِ، نالَ العبْدُ مُناهُ، وسَنَّى اللهُ لهُ بيمْنِ وساطَتِكُمْ خيرَ ماَ سنَّاهُ، وأيقَنَ بتيْسيرِ لُبانَتِهِ وتَخَلُّصِها، وضَفَتْ عليه بُرودُ العنايةِ الجمليةِ بعدَ تَقَلُّصِهاَ. »[47]

كما كتب رسالة إلى أحد أرباب الدولة بتونس يناشده التوسط له لدى الحضرة، قال:« والقصْدُ منكمْ أنْ تُقرَّرُوا لدى الحضْرةِ ما عنْدِي منَ الحرْصِ على خدْمتِهاَ، التي تُسْمِي المراتبَ، وتُسنِي المقاصِدَ والمطالبَ، فمنْ كُنتمْ لسانهُ وصلَ إلى بُغيتِهِ، وحَصلَ على مُنيتِهِ، وكمالُكُمْ يفعلُ في ذلكَ بِحسبِ ما اعْتادَ من جَميلِ المُشاركةِ وحُسنهاَ، ولا تشقُّ عليهِ كُلفةٌ، يكونُ الشُّكرُ الطَّويلُ منْ ثَمنهاَ.»[48]

وهذا التطلع الجامح على الالتحاق بحضرة تونس يتعارض مع ما أورده ابن الخطيب في الإحاطة من أن **المستنصر بالله** قد استقدمه على عادته في استدعاء المشاهير والعلماء، فاعتذر له ابن خطاب، فكانت من

[46] . نفسه، قسم التحقيق، ص 209 .
[47] . نفسه، قسم التحقيق، ص 137.
[48] . ابن خطاب، **فصل الخطاب**، ص 258.

أشق ما مر على المستنصر وظهر له علو شانه وبعد همته[49]، بيد أن هذه الرواية ليست مؤكدة بدليل القول في مستهلها "**وزعموا**"، ثم إن صحت فإن احتمال تاريخ استدعاء المستنصر لابن خطاب يتزامن مع الفترة التي كان مقيما فيها بالأندلس سواء كان كاتبا في بلاط بني هود بمرسية، أو البلاط النصري بغرناطة، وهي فترة كان متشبثا فيها بموطنه، لا يرضى عنه بديلا، بدليل أن أغلب صحبه قد رحلوا من الأندلس إبان الفتنة إلى عدوة المغرب أو تونس، في حين لم يبرح مكانه، وهو أمر قد تأسف عليه فيما بعد.[50]

ورغبة ابن خطاب عن تلمسان وتطلعه على غيرها، ومخاطبته الشرق والغرب في التخلص منها أمر يمكن إرجاعه إلى الأسباب التالية[51]:

. حالة الجدب والخمول العلمي بتلمسان، وهذا ما أقضّ مضجع ابن خطاب إذ لم يجد ما يبل به تطلعه إلى المعرفة أو يفيضه على غيره، إضافة إلى اضطراب الأحوال بتلمسان، وهذا ما ذكره في رسالته إلى أبي أمية الدلائي قاضي القضاة بفاس، وفيها يشير إلى رغبته في الالتحاق به :« وأنا عَلِم الله مِمَّنْ طَوَيْتُ على حُبَّه الجَوانحَ، ولم أزلْ أزْجُرُ لِلقائهِ البوارِحَ والسَّوانِحَ، حرصاً على الاسْتمتاعِ بِمُحادثَتهِ، والانتفاعِ بِمُذاكرتِهِ، فماَ بقِيَ بهذه البلاد للعلمِ طالبٌ أجالسُهُ، ولا عالِمٌ أُدراسُهُ، وتُستفادُ منهُ نفائسُهُ، فكنتُ ألومُ نفسِي على الإقامةِ في محلّ جذْبٍ، والمرعَى الخَصيبُ أمامِي، والغَمامُ الصّيّبُ يعدُنِي وَميضُهُ بنقعِ أُوامِي، فأقمْتُ على مثلِ حدَّ الأسَلِ، وعدَتْ عوادٍ دفعتْ في صدْرِ الأملِ، وسدَّتْ عليَّ طُرُقَ الحيَلِ، منْ شِكاياتٍ مُلازمةٍ، وأحوالٍ غيرِ ملائمَةٍ، وحوادثَ قنعتْ بغيْرِ المَقْنعِ، وأرْضتْ سعْداً، وقدْ خُلِّفَ آخرَ الأربعِ...، وفي علمِ سيِّدِي أنَّ للضَّرورةِ حالاً تُجزِّعُ الغُصَصَ، وتُسوِّغُ الرُّخَصَ، فلِذلكَ اكْتفيْتُ بإعلامِ القلمِ، منْ إعْمالِ القدمِ، وبِمُحادثةِ الجَنانِ، عنْ مشاهدةِ العِيانِ، مع أنَّها المقصدُ الأسْنَى الذي تتشوَّفُ النُّفوسُ إليهِ...ومع ما أنا فيهِ منْ مكابدةِ المتاعبِ، ومجاهدةِ النوائبِ، فلِساني رَطْبٌ بشُكرِ اللهِ تَعالى على صنائعهِ الجَميلةِ، وعوارفِهِ الجزيلةِ، وخُصوصاً على ما خوَّلَكُمْ منْ إعْلاءِ المراتبِ، وإنْماءِ المواهبِ.»[52]

وهذا الوصف يتفق مع ما ذكره العبدري في رحلته حينما حل بها سنة 688هـ . 1289م، وذلك بعيد وفاة ابن خطاب، قال:« وأمّا العلمُ فقد دُرس رسمهُ في أكثر البلاد، وغاصت أنهاره فازدحم على

[49] . **الاحاطة**، 2/ 428.

[50] . ابن خطاب، **فصل الخطاب**، قسم الدراسة، ص 55.

[51] . للمزيد انظر ابن خطاب، المصدر نفسه، قسم الدراسة، ص 52 . 60.

[52] . ابن خطاب، **فصل الخطاب**، ص 220.

الثماد، فما ظنك بها وهي رسم عف طلله، ومنهل جف وشله»[53]، والتقى العبدري ابن خميس، وأثنى عليه، وقال: « وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي للعلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس، وهو فتي السن، مولده عام خمسين وله عناية بالعلم، مع قلة الراغب فيه والمعين عليه، وحظ وافر من الأدب، وطبع فاضل في قرض الشعر.»[54]

ـ ومما زاد في معاناة ابن خطاب بتلمسان افتقاده لصحبه وأحبته، ممّا أورثه حالة من الوحشة والوحدة، وهو بلا أهل ولا وطن ولا ولد، فكان دائما ما يتطلع إلى صحبه ويرغب في الالتقاء والالتحاق بهم، لاسيما أن أغلبهم كان بحضرة تونس وسبتة وفاس، يقول في إحدى رسائله لأبي أمية الدلائي: « وإنَّي لسائلٌ عنْ أحوالكُمُ الكريمةِ، مُتشوِّفٌ إليها تشوُّفَ الُمجدِبِ على الدَّيمَةِ، فإنْ تَفضَّلتمْ بالإعلامِ بها جمعتمْ منْ مَسَرَّاتِي مُنْشَتَّهْ، وأحييتُمْ نفساَ بالوَحْشةِ ميَّتَهْ»[55]، وهذه الوحدة والعزلة التي كان يحياها ابن خطاب قد لازمته إلى أخر عمره، وهو ما عبّر عنه في قوله: « وإنْ تشَوَّفتُمْ إلى معرفةِ أحوالي، فهي على ما يُرضي بحمدِ اللهِ، لزمتُ البيتَ واطَّرحْتُ لوْ وليْتَ، كتابِي جَليسي، وانفرادِي أنيسِي، ولا أعْدمُ تَسْخيراَ ربَّانيّا، يصلُ بأسْبابِهِ أسْبابِي، ويعْجزُ عنْ نيْلهِ اعْتمالِي واكْتسابِي، والحمدُ للهِ أوَّلاَ وآخراَ، وباطناَ وظاهراَ.»[56]

ـ وبالرغم من المرتبة الرفيعة التي حظي بها ابن خطاب كصاحب القلم الأعلى لدى يغمراسن ابن زيان، إلا أنه كان يشكو من خصاص مالي، لم يكن يسعفه في إغناء نفسه، والنهوض بأموره الخاصة، وتفرغه للعلم، وتطبيبه وعلاجه، لاسيما وهو قدم تلمسان خاوي الوفاض بعد ما أكلت محنته بمنتيشة كل ماله ومتاعه.[57]

ولعل أمراء بني زيان لم يكونوا يجزلون العطاء، ويغدقون المنح و الهبات، ربما بسبب طبيعتهم البدوية المتقشفة، حتى إننا نجد بعض أمرائهم يستجدون المنح من حضرة تونس كالأمير محمد أبي علي عامر[58]، فكيف بغيره؟ خلاف ما عليه حضرة تونس«حيثُ العزُّ ظلُّهُ مَمدودٌ، والمُلكُ أزرُهُ مشدودٌ، ولِلآمالِ وفود تتبعها وفودٌ، كلٌّ يُحَدَّقُ بهِ منْ رغْيهاَ الأكْفَلِ إطارٌ، ويتقلَّبُ من إنعامِها في عافيةٍ، غُرابُهاَ لا مُنبرٌ

---

[53] ـ العبدري، **الرحلة المغربية**، تح أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، دت، ص11. يرجع أحد الباحثين هذا التحامل من قبل العبدري إلى حرقته الشديدة في أن يرى مدن الإسلام عامرة بالعلم والعلماء. انظر، عبد الجليل قريان، **السياسة التعليمية للدولة الزيانية**، ماجستير، جامعة الإخوة منتوري، 2003 . 2004، ص 255 . 256.

[54] . المصدر نفسه، ص 11.

[55] . نفسه، ص 141.

[56] . نفسه، ص 215.

[57] . نفسه، قسم الدراسة، ص 197 - 198.

[58] . **فصل الخطاب**، ص 130.

ولا مُطارٌ، فطُوبَى لمنْ وَدَعَ مَحلَّهُ، وألقى بذلكَ الفيءِ الخصْبِ رَحْلهُ، فحازَ الذُّخرَ المكنوزَ، ويا ليتنِي كنتُ معهمْ فأفُوزَ»[59]

ولهذا الأمر، كان ابن خطاب كثيرا ما يخاطب من يتوسم فيه المساعدة، وإن كان يلمح إلى مسألته وعوزه، من ذلك خطابه لأحد أرباب الدولة بتونس يطلب منه فضل عنايته، ومنحة يتبلغ بها ويستعين للإقراء والتدريس يقول: «وما القصدُ من جلالكُمْ إلا فضلُ عنايةٍ، أستقبلُ بها عصرَ شَبيبةٍ جديدةٍ، وأتفرَّغُ لعلمٍ أدْرسهُ، ولا شُغل لِي سواه مُنذُ سنينَ عديدةٍ»[60]

كل هذه الدوافع والبواعث تضافرت لتدفع ابن خطاب دفعا إلى الرحيل عن تلمسان، لكن ثمة عوائق ومثبطات حالت دون تحقيق أمنيته، يأتي على رأسها توالي الأمراض والشكايات عليه، لاسيما وأنه قد أشاخ وأسن وأصبح قعيد الفراش، حتى إنه لا يستطيع الحراك ويعزي بين يدي الأمير أبي سعيد في أبيه يغمراسن فاكتفى بإعلام القلم عن إعمال القدم، قال:«ولولا موانعُ وعللٌ يعلمُها مولايَ أيَّدهُ اللهُ، لقمتُ بينَ يديهِ حيثُ كان بالتَّعْزيةِ والتَّهنئةِ، ولوفَّيتُ واجبهُ الذي أخصُّهُ بالتَّقديمِ والتَّبدئَةِ.»[61]

ويعتذر في رسالة أخرى إلى حضرة تونس عن عدم قدرته على الذهاب إليها بسبب نوائب دهره ومرضه المقعد له، قائلا:«وما منعَ العبدَ عنِ السَّعيِ لأنْ يستدركَ حظَّهُ الذي فاتهُ، ويجمعَ في الحَنابِ المكرَّمِ شتاتهُ، إلا نوائبُ دهرٍ أبتْ إلاّ إلحاحاَ عليهِ وإنحاءَ، وقشَّرتْ عُودهُ، فلم تدعْ عليه لحاءَ، وبنتهُ على الكسْرِ، وحكمت على مَمدودِهِ بالقصْرِ، ومنعتهُ من الصَّرفِ، وعاملتْهُ بالإعْلالِ والحذْف، وسلبتْ عقْلهُ الخَطيرَ، وقصَّتْ جناحَهُ، فلمْ يُطِقْ أنْ يطيرَ، فأقامَ ووُجُودُهُ عدمٌ، وصارَ ثُباتُهُ في حيِّزِ الإكمالِ، ومكانُهُ في صنفهِ بمنزلةِ الشَّكلِ الرَّابعِ من الأشْكالِ، إنْ عُدَّ فلِتكْميلِ القِسمةِ، لا للحاجةِ إلى الاستعمالِ، فإنْ حُمَّ للعبدِ نجاحٌ، وريشَ منه جناحٌ، طار على البابِ الكريمِ من حينهِ، وانْشقَّ من كُثُبٍ رياً رياحينهِ»[62]

أثره في انتعاش الحركة الأدبية بتلمسان:

لقد كانت هجرة ابن خطاب مبعث حياة أدبية راقية في تلمسان، خاصة وأنه نبغ في الترسل والكتابة وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر، وبلغ فيها درجة كبيرة فاق بها معاصريه في المغرب والأندلس.

[59]. المصدر نفسه، ص 210.
[60]. نفسه، ص 210.
[61]. نفسه، ص 290.
[62]. نفسه، ص 135.

بدا تأثيره جليا على أدباء وعلماء بني زيان، خاصة وأنه تفرغ للتدريس أثناء مقامه بتلمسان، « فلم تشغله شواغل الوزارة، وأعباءُ الإمارةِ، عنِ الاعتناءِ بالعلومِ، ولم يلْهَ طرفةَ عينٍ عنهَا، وكيفَ، وله في كلَّ فنَّ منها المقامُ المعلومُ، فأصبح ملاذا لذوي المقيلِ والتعريسِ»[63]

تفرغ للتدريس بتلمسان، فما قصدها منذ البداية إلا لمزاولة التعليم، يقول جامع رسائله:«وما القصْدُ من جَلالِكم إلا فضلُ عنايةٍ، أستقبلُ بها عصر شَبيبةٍ جَديدةٍ، وأتفرّغُ لعلمٍ أدْرُسه وأُدَرّسه، ولا شُغلَ لي سواه منذ سنينَ عديدةٍ.»[64]

بدا أثره الأدبي واضحا لدى صديقة الحميم " ابن خميس التلمساني"، إذ كان زميلا له في الكتابة عن أمراء بني زيان، تجري بينهم مراسلات ومكاتبات ومجاوبات تدل على عمق الإخاء والمودة التي تجمع بينهما، وقد مدح ابن خطاب ابن خميس غير ما مرة، وكان منه بمنزلة قريبة جعلته يقيد له بخط يده بطاقة يذكر له فيها من لقيه من العلماء والصلحاء ببلده مرسية[65]، وكان نتيجة الاحتكاك أن غدا ابن خميس راوية لشعر ابن خطاب، بل إنه كان محتفظا بتقييداته بخط يده، يؤكد ذلك قول العبدري عن ابن خميس :«وأنشدني أيضا للفقيه الأديب الكاتب الأبرع أبي بكر محمد بن داود ابن خطاب المرسي، ما أنشده إياه لنفسه...وأنشدني عنه أيضا ونقلته من خط ابن خطاب، قال: وممّا نظمته والتزمت فيه حرف الراء والترصيع...»[66]

ومن تلاميذه ابن رشيد السبتي الذي التقى به في تلمسان وجالسه وأخذ عنه، وروى عنه شعره[69] وهو الذي قام بجمع رسائل شيخه ابن خطاب، وشعره المستطاب حسب ما رجحته الباحثة " فتيحة أمين".[70]

كما تتلمذ على يديه أبو عبد الله بن الحكيم، أخذ عن شيخه ابن خطاب أثناء نزوله بتلمسان صحبة رفيقه ابن رشيد في رحلتهما إلى المشرق، وكان من ثمرة اعتناء التلميذ بأستاذه أن ألفّ برسمه كتاب " فصل الخطاب"، وهو ما أفصح عنه جامع فصل الخطاب في قوله: « ورأيت منه ـ دام سعدُه، واتَّصل عَضْدُه ـ اعتناءَ بكلامِ الفقيه أبي بكر المذكورِ، وتشوّفَا على ما صدر عنه من منظومِ أو منثورِ، واستحسانا لما وقع له

[63] . **فصل الخطاب**، ص 4، والمقيل هو الاستراحة في القيلولة عند اشتداد الحر، والتعريس هو النزول في آخر الليل للاستراحة بعد سفر.

[64] . المصدر نفسه، ص 218.

[65] . العبدري، **الرحلة المغربية**، ص 11. 13.

[66] . المصدر نفسه، ص 12 . 13.

[69] – للمزيد انظر، المقري، **نفح الطيب**، 4/ 496 . خالد بن عيسى البلوي، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تح الحسن السائح، اللجنة المشتركة للنشر التراث الإسلامي، أبو ظبي، الرباط، (دت).، 1/ 150 . أبو بكر بن خطاب، **فصل الخطاب**، قسم الدراسة، ص 38 . 39.

[70] . أبو بكر بن خطاب، **فصل الخطاب**، قسم الدراسة، ص 80 . 82.

في بعض رسائله من إصَابةِ الأغراضِ، وإجادةِ المقاصدِ السَّالمِ أكثرُها من الانتقادِ والاعتراضِ، فحملني الجِدُّ المنجدُ، والجِدُّ المُسدَّدُ المرشِدُ، على أن جمعتْ له ـ أعزَّه الله ـ من إنشائهِ هذا الكتاب المُشرَّفَ بذكْرِه».[71]

الخاتمة:

ـ لقد أرسى سلاطين بني زيان دعائم حركة أدبية ملحوظة خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، تعود أسبابها إلى التنافس الذي كان يقع بين الملوك حول استقدام العلماء إلى بلاطهم، وإغداق ضروب الإنعام عليهم، وإلى تدهور الوضع السياسي والاجتماعي بالأندلس الذي حفّز كثيرا من رجال الفكر إلى الهجرة إلى أقطار المغرب طلبا للأمن والاستقرار.

ـ استوعبت رسائل ابن خطاب الإخوانية فن الرحلة، قدّم لنا من خلالها رحلته إلى تلمسان، التي حصد فيها أهدافا علمية ومعرفية مكّنته من إعلاء شأنه، بعد أن قاسى مر الحياة في مسقط رأسه، لولا عناية الله التي فتحت له أفاقا رحبة للتميز والانطلاق في فلك الحاضرة الزيانية، وبوجوده فيها مكّن الرقي لها ولسلاطينها، الذين اتخذوه كاتبا أعلى لهم، لمراسلة الملوك والأمراء، فجاء تقييمه للدولة الزيانية أثناء القرن السابع الهجري محيطا بكل الجوانب.

ـ تتفق النظرة المتشائمة لابن خطاب مع ما ذكره العبدري في رحلته المعروفة، ففي بداية الأمر كان يتوق شوقا لزيارتها والتطلع لحكامها، لكن بعد استقراره فيها طاب له الرحيل عنها لدواع علمية ومادية في آن واحد.

[71] . المصدر نفسه، ص 4.